٣ـ التلازم بين الشر والخير

من المعالجات الهامة في حلّ مشكلة الشر، دعوى قبح ترك فعل الخير الذي يلازمه شرّ قليل، فإنّ جميع العقلاء يُقدِمون مثلا على قطع عضو أعضاء الإنسان إذا ترتب على قطع هذا العضو بقاء صاحبه على قيد الحياة. وهذا الردّ يتأسس على المقدمات الآتية:

أ- الخير والشر متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر في عالم المادة

ب- الخير في العالم المادي أكثر من الشر

ج- لا يحسن ترك الخير الكثير حذرًا من الشر القليل

ونبدأ بشرح المقدمتين الأخيرتين بتقسيم منقول عن أرسطو. يرى أرسطو في التقسيم المشار إليه أنّ العوالم الممكنة، من حيث مقادير الخير والشر، على أقسام خمسة، هي: عالم كله خير محض، وعالم كله شرّ لا خير فيه وعالم يغلب خيره على شرّه، وآخر بعكسه، يتساوى فيه الخير والشر. وما يتنافى هذه الأقسام الخمسة هو خلق الشر المحض، وعالم شرّه أكثر من خيره، وعالم يتساوى فيه الخير والشر. ولم يخلق الله مثل هذه العوالم. ولكن ترك خلق العالم الذي يغلب عليه الخير فرارًا من الشر القليل الملازم له هو بحدّ ذاته شرٌ، على حد تعبير عدد من صفات الله مع من الفلاسفة. وعلى ضوء هذا التقسيم يرى أكثر المؤمنين بالأديان أن العالم المادي هو عالم يغلب عليه الخير، والعالم الذي هو خير محض هو عالم المجردات، وكلاهما مخلوقان.

والنقطة الجديرة بالاهتمام هي التعبير بالقلة والكثرة ومشتقاتهما في مقدمات الدليل المذكور أعلاه، ما يوحي أن معيار المحاسبة المعتمد هو معيار كمي. هذا ولكنّ الكمّ ليس هو المعيار الوحيد الذي يوازن بين الخير والشر، إذ صرّح بعض الفلاسفة بإمكان اعتماد الكيف معيارا للموازنة، وبالتالي يمكن بحسب هؤلاء أن يُبرّر وجود الشرّ الكثير إلى جانب الخير القليل إذا كان هذا الخير القليل متفوقا على مستوى الكيف وإن كان مرجوحا بحسابات الكم. ولا شك في صحة هذا الكلام في مقام الموازنة بين الخير والشر، فهل ينبغي أن يترك الله خلق كونفوشيوس وموسى وملايين الأشخاص الذين يستحقون الخلق والوجود، كي لا تطأ قدما شخص مثل هتلر عتبة الكرة الأرضية؟

بعد هذا التمهيد واستعراض المقدّمات نخوض في إثبات المقدّمات

ونبدأ بالمقدمة الأولى: ويقتضي الحديث عن هذه المقدمة أن نشير إلى تصنيف الشرور وتقسيمها، فنقول إنّ للشر تقسيمات عدة أشهرها تقسيمه إلى شر طبيعي وآخر أخلاقي. والأول هو الحوادث المؤلمة التي تلم بالطبيعة كالزلازل والبراكين وما سوى ذلك من أحداث يبدو ولو بنظرة أولية أن لا يد للإنسان فيها والقسم الثاني من الشرور هو الشر الأخلاقي وهو الأفعال المؤذية التي تصدر عن الإنسان كالظلم الذي يمارسه فرد من الناس تجاه فرد آخر أو تجاه أفراد آخرين. ولتوضيح عدم إمكان التفكيك بين الشر والخير وهو المدعى الذي نحن بصدد معالجته، لا بد من الحديث عن كل قسم من هذين القسمين على حدة.

التلازم بين الشر الطبيعي والطبيعة

عالم الطبيعة هو عالم التزاحم والتضاد. فالذئب الجائع لا يمكنه أن يملأ بطنه إلا بأكل شاة أو غيرها من الحيوانات. والأرض الجافة التي لا يصيبها المطر لا ينبت فيها شجر ولا عشب، ما يؤدّي إلى موت من يعيش عليها إذا لم يستطع مغادرتها إلى محل آخر. وثمة تدخل إنساني أيضًا في حركة الكون وطبيعة سيره، فالإنسان يتدخل في كثير من الموارد فيحوّل المطر الذي هو نعمة إلهيّة تتوقف عليها الحياة إلى نقمة اسمها السيول الجارفة... وعلى هذه الأمثلة يُقاس ما سواها، والعالم الذي لايعرف التزاحم ليس عالما ماديًا. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يمكن للإنسان الذي يكتشف بعض قوانين الكون أن يبقى في أمان من بعض هذه الأحداث على الأقل. وعلى أي حال، نحن بين فرضيتين إما أن يخلق الله العالم على ما هو عليه الآن الخير الكثير وإلى جانبه شر قليل)، وإما أن يترك خلقه ويحجب عنه لطفه. وقد تقدّم أنّ الموحدين يرون أن حكمة الله تقتضي اختيار الحالة الراهنة أي خلق العالم مع ما يلازمه من شر ترجيحا للخير الوفير الذي هو فيه. وبعبارة أخرى: إذا نظرنا إلى العالم بوصفه «كلا» ومجموعة فلن نجد فيه الا الخير.

التلازم بين الشر الأخلاقي والاختيار

لقد خلق الله الإنسان مختارا، وأحله في مرتبة يفوق فيها سائر المخلوقات، بسبب هذه المنحة الإلهية الا وهي منحة الاختيار. هذا ومن لوازم الاختيار بل لعلّ حقيقة معناه أن يكون الإنسان قادرًا على انتخاب خيار من خيارات عدة. ولا يخفى أنّ هذه القدرة على الاختيار تودي في بعض الحالات بحقوق بعض الناس أو ممارسة الظلم عليهم. وقد تصدى عدد من العلماء منذ أن أطلت مشكلة الشرّ برأسها ، تصدّوا للردّ عليها بهذه العبارات، وممن يشار إليه في هذا السياق اللاهوتي المسيحي أوغسطين إذ يقول:

الحصان المتمرّد أفضل من الحصان الخشبي الذي يفتقر إلى الحراك والإدراك، ولأجل هذا تجده مطيعا وعليه، يقاس الإنسان المختار الذي قد يرتكب بسبب اختياره بعض المظالم ، فهو أفضل من الإنسان المطيع، ولا يطيع إلا لأنه عاجز عن ارتكاب المعاصي وممارسة الظلم.

وقد أثار هذا الحلّ نقاشات طويلة في الفكر الغربي. إذ إنّ بعض الملحدين مثل ج. ل. مكي، وآنتوني فلو طرحوا عددا من الأسئلة الإشكالية في مقابل هذا الكلام من قبيل: أليس الله بقادر على الجمع بين خلق الإنسان مختارا، وبين حصر اختياره في دائرة الأمور الخيّرة ؟ وبعبارة أخرى ثمة عوالم عدّة يمكن تصوّرها في هذا المجال منها: عالم جميع موجوداته مجبرة عالم أكثر موجوداته تختار الشر، وعالم يغلب على أهله اختيار الخير ويرجحونه على الشر، وعالم يختار أهله الخير دائما). وسؤال المحلدين هنا هو : ألا يقدر الله على خلق النسخة الأخيرة من هذه العوالم؟ يجيب بعض العلماء عن هذا السؤال بالنفي. ويرى أحدهم أنّ الأمور المستحيلة ليست وحدها مما يقع خارج حدود القدرة الإلهية، بل حتى بعض الأمور الممكنة تقع خارج دائرة قدرته تعالى: العالم الذي يختار أهله جميعًا طريق الخير هو عالم «ممكن من دون شكّ، ولكن خلق العالم بهذا الشكل وبهذه الصفة، من الأمور الخارجة عن دائرة القدرة الإلهية. وفي حقيقة الأمر أنّ المخلوقات المختارة هي التي تساعد على خلق مثل هذا العالم باختيارها للخير .

وهذا الجواب برأينا غير صحيح، لأنه وكما تقدم سابقا، الله سبحانه قادر على فعل كلّ شيء ممكن، ولكن مع ذلك لا يقتضي إمكان الأشياء حتمية وجودها، بل ولا حتى احتمال وجودها في بعض الحالات. فإنّ الله يعمل إرادته على أساس الحكمة وبحسب المصلحة، فربّ عالم خال من الشر يعجز عن إيصال البشرية إلى كمالها الذي يريده الله تعالى. وهذه الإشارة الأخيرة هي الجواب الرابع الذي سوف نعالجه في ما يأتي.

٤ـ الشر أداة للتكامل البشري

مضافا إلى ما تقدّم من أجوبة ومعالجات لمشكلة الشر، فإنّ الشر يمكن تصوّر منافع وفوائد تترتب عليه ومن ذلك أن إدراك الحسن والجمال في العالم لا يتحقق إلا على ضوء المقارنة مع القبح: «لو كانت جميع الوجوه جميلة لما حسن في أعيننا أي وجه».

نعم إن الشر يمكن أن يساعد الإنسان على التكامل، بل يمكن عده وسيلة من وسائله وأداة من أدواته. واللاهوتي المسيحي إيريناوس هو واحد من أبرز من اعتمدوا على هذه الفكرة لحلّ مشكلة الشر والردّ عليها. ويقول جان هيك الذي هو أيضًا ممن يرون هذا الرأي ويتبنون هذه النظرية:

على ضوء نظرية إيريناوس في العدل الإلهي، فإنّ الله لم يرد خلق فردوس أرضي يصل أهله وساكنوه إلى أقصى حد من إشباع اللذات مع الحد الأدنى من الآلام. بل إنّ الأرض وهذا العالم هو أتون لتهذيب الأرواح أو بناء الإنسان، يمكن للمخلوقات المختارة فيه أن تواجه التحديات وتعمل بواجباتها لتصل إلى مقام يؤهلها لإطلاق لقب «أبناء الله» عليها ولتكون البشرية أو بعض أفرادها على الأقلّ صالحة لوراثة الحياة الأبدية.